مجلة الآداب واللغات المجلد(07) العدد(02)ديسمبر2021 ، ص. ص81-96

العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها

-مقاربة مفهومية أنطولوجية-

the relation between the sound of a word and its meaning

عبد الرحيم عزاب 1*

[1] **جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، *abderrahimazeb_alg@yahoo.fr***

تاريخ الارسال: 2018/05/08تاريخ القبول:2019/07/19 تاريخ النشر: 2019/12/30

الملخص:

تعالج هذه المقالة العلمية قضية الصوت الذي يعد من أكثر الإشكاليات حضورا في الدرس اللساني الحديث والتراثي، لكونه مرتبطا ببنية النص الأدبي في مجالاته النحوية والصرفية والدلالية.

إن من أبرز القضايا اللغوية التي يعالجها الصوت ما يتعلق بالبحث عن المعنى، فإذا كان علم الدلالة هو العلم الذي يدرس المعنى، فإن العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها تؤدي حتما إلى المعنى الذي يحمله الرمز اللغوي بكل أبعاده: المعجمية والإيحائية.

الكلمات المفتاحية:

الصوت، المعنى، الدلالة الصوتية، الرمز اللغوي، الإيحاء.

Summary

The subject of this research deals with the notion of sound، which carries problematic importance present in the modern linguistic lesson and the Arabic heritage. Linked to the structure of literary text through its grammatical، phonetic and semantic visions.

For this reason، the greatest notions، which deals with the sound، are related to the meaning. So if the semantic is defined as the science of meaning. We can say that the relation between the sound of a word and its meaning goes hand in hand with the meaning of the language symbol and its lexicon and metaphoric forms.

Key words

The sound, the meaning, phonetic meaning, the language symbol, connotation.

---

*المؤلف المرسل.

العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها

مقدمة:

يعد سؤال الصوت من أكثر الأسئلة إلحاحا في مكونات الدرس اللساني المعاصر بله التراثي، لكونه مرتبطا ببنية النص في مجالاته النحوية والصرفية والدلالية، ولعل أبرز القضايا التي يعالجها الصوت ما يتعلق بالبحث عن المعنى.

إن الشعر بناء موسيقي (صوتي) باللغة، فالموسيقى سلسلة صوتية تنبعث عنها المعاني، لأن الشعر في حد ذاته تنظيم لنسق من أصوات اللغة تنظيما يحدث نوعا من الإثارة. فالإنسان مفطور بطبعه على إيثار الصوت الموسيقي المنغوم. ولا يسمى الشعر شعرا حتى يكون له وزن وصوت وقافية، وقد ساعدت القافية بوصفها منبها صوتيا على تعريز البناء الموسيقى للشعر العربي، وأسهمت في سهولة حفظه وروايته عبر العصور.

إن الضرورة الصوتية هي ضرورة منطقية في الخطاب الأدبي، ولذلك أجمع وتواتر الدرس الصوتي والنحوي والبلاغي والعروضي على حقيقة مفادها أن الشاعر الحقيقي عندما يقول الشيء الجميل، يقول في نفس الوقت الشيء الصحيح.

إن الصوت هو حركة المعنى، وليس بينهما انفصال، ولإدراك أحدهما ينبغي اكتشاف الآخر معه، فالصوت هو بناء اللغة وبناء المعنى في آن.

فالصوت هو السبيل الأمثل الذي يستند إليه النص القرآني المقدس أو النص الشعري في حركة المعنى وتناسل الدلالة.

فالكلمات التي يبتدعها المعنى (الدلالة) لا تنفصل عن أصولها الصوتية، ولهذا قـال أمبرطوإيكو Umberto eco:" إن الجرس يجب أن يكون صدى للمعنى ". وهذا ما يدل في اعتقادنا على دور الإيقاع الصوتي في الوفاء بالمعنى في الخطاب الشعري، وهو أبلغ منه وأسرع في الخطاب القرآني، وبالتالي فإن الكلام الموزون والمقفى هو البحث في آلية القراءة والتلقي من جوانب متعددة، منها سرعة نفاذه إلى الفكر والتذكر...ومن هنا إشادة إلى أن "إخوان الصفا" في رسائلهم تنبأوا إلى هذه الوظيفية التواصلية Communicative لقولهم:" إن الأبيات الشعرية الموزونة والمقفاة تثير الأحقاد الكامنة وتحرك النفوس الساكنة وتلهب نيران الغضب على نحو مماثل لما تفعله الألحان

الموسيقية"، إن الكلام الموزون أكثر نفاذا إلى الفكر وأبقى أثرا فيه، فعلماء النفس يقولون: "إن الكلمة الموزونة تطلق شحنات نفسية أخرى تضاف إلى المعنى الأصلي".

فالشعر أداة حفظ للعربية، ولا يسمو الشعر إلى هذه الدرجة إلا لكونه قانونا صارما لا يقتحمه إلا من كان ذا بيان رفيع وذا معجم ثري، ليتمكن من التحرك بحرية في محيط الشكل الشعري ومعناه، فالشعر جمال فضلا عن كونه حافظا للسان.

إن ثبات العرب على القوانين الشعرية حفاظا للسانهم فلو أنهم سمحوا لشعرائهم بالخروج عليها، فسيضعفون البلاغة والصوت الشعريين ويسمحون لكل من قال نثرا أن يدعي أنه شاعر، لاسيما وأنهم أولوا عناية كبيرة لرواية الأشعار، بل إنهم فاضلوا بين الشعراء بيانا وصوتا، فالأصمعي وابن سلام الجمحي والآمدي لم يفاضلوا بين كلام وكلام بل فاضلوا بين شعر وشعر، ولم يوازنوا بين شعر ونثر. والنوع الأدبي يخضع لسياقين كي يمتلك هويته هما الأسلوب وقوانين النظم.

أولا: الدلالة الصوتية:

علم الأصوات هو علم يدرس أصوات اللغة المنطوقة، وهو فرع من علم اللغة، ويتميز عنها بجانبه المنطوق فقط، و"الأصوات أصل طبيعة اللغة، والكتابة لاحقة عليها، فهي رمز الصوت وتجسيد مادي له".

وعلم الأصوات قديما عند العرب واحد من العلوم اللغوية التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة. "وقد كان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) أول من شرع منهاجا للناس في هذا العلم الذي كانت معطياته موزعة بين معارف لغوية عامة ووجوه قرائية خاصة مما يتعلق بقراءة القرآن الكريم وتحقيق لفظه وتجويده نطقه".

أما المراد بالدلالة الصوتية، فهي تلك الدلالة المستمدة من طبيعة الأصوات وتتحقق الدلالة الصوتية في نطاق تأليف مجموع أصوات الكلمة المفردة، وتسمى بالعناصر الصوتية الرئيسة، والتي يرمز إليها بالحروف الألف بائية: أ، ب، ت، ج، ح... ويشكل منها مجموع حروف الكلمة التي ترمز إلى معنى معجمي "، فإذا حدث إبدال– أو إحلال – صوت منها في كلمة لصوت آخر في كلمة أخرى، أدى ذلك إلى اختلاف دلالة كل منهما عن الأخرى، ويعرف هذا الإحلال الصوتي في علم اللغة

بالحديث عن التوازن التقابلي، إذ لا يحل فونيم phonème محل آخر في كلمة ما، فتنشأ كلمة ذات معنى مختلف".

إن الصوت عارضة لغوية تخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة والتطور، فالصوت والمعنى قسمة جمالية متوارثة متطورة أبدا، وعالم الصوت والدلالة الحق هو ذلك الذي يجري وراء اللغة يتتبع مسيرتها، ويفقه أساليبها. " فالدراسة الصوتية هي الدراسة اللغوية الأولى التي يعنى بها اللغويون، وبها يعرف الدراس كثيرا من الظواهر اللغوية التي تدرس في كتب النحو، من إبدال، وإعلال، وإدغام إلى غيرها من ظواهر لغوية لا تفهم فهما مستوعبا إلا إذا أخذت الدراسة الصوتية لها مكانا في دراسة العربية".

ثانيا: الدراسة الصوتية جزء أصيل من دراسة المعنى.

لا يمكن الأخذ في دراسة لغة ما، أو لهجة ما دراسة علمية مالم تكن هذه الدراسة مبنية على وصف أصواتها، وأنظمتها الصوتية، فالكلام أولا وقبل كل شيء، سلسلة من الأصوات، فلابد من البدء بالوصف الصوتي للقطع الصغيرة، أو للعناصر الصغيرة، أقصد أصغر وحدات الكلمة، هذه الوحدات التي تتألف منها المقاطع Syllabes و" من المحال إذن دراسة بنية الكلمة دون التحقق الصوتي للعناصر المكونة للكلمات، كما أن دراسة نظم Syntaxe الكلام قاصرة ما لم يراع فيها دراسة الصور التنغيمية Formes toniques مثلا، والدراسة الدلالية Sémantique أي دراسة المعنى لا يمكن أن تثمر ما لم ترتكز على دراسة الصور الصوتية والتنغيمية".

ويسترسل العلامة محمود السعران في تبيان القيمة العلمية والوظيفية للدراسة الصوتية قائلا:" ولا غنى للمعاجم عن الاستعانة بالثقافة الصوتية اللغوية، فالمفروض أن واجب المعاجم لا يقتصر على تبيان معاني المفردات، وتطور هذه المعاني، بل يتعداه إلى تمثيل نطق هذه المفردات، وهذا لا يكون إلا باصطناع نظام من الرموز الكتابية يكون أدق تمثيلا للنطق من الأبجدية التقليدية".

ثالثا: العلاقة بين الأصوات والمعنى علاقة جدلية.

لقد قيل عن أية كلمة ما، وبصورة عمومية " كل إشارة لغوية هي كيان ذو جانبين، فكل إشارة لغوية هي وحدة من الصوت والمعنى، أو بتعبير آخر هي وحدة من الدال

Signifié والمدلول Signifiant والمخطط الذي استخدم لتمثيل هذه العلاقة يكون كالآتي:

المدلول Signifiant

الدال Signifié

وهذان المكونان الدال والمدلول متصلان بصورة جوهرية، فكل واحد منهما يستدعي الآخر..." ويؤكد رومان ياكبسون Roman Jakobson هذه المعادلة بين الدال والمدلول والصوت قائلا:" ولكي نكون قادرين على تفسير الأفعال المتنوعة وتصنيفها لأعضائنا الصوتية، فإنه من الضروري أن تؤخذ بنظر الاعتبار الظواهر الصوتية التي تهدف هذه الأفعال إلى إنتاجها، لأننا نتكلم لكي نكون مسموعين، ولكي نكون قادرين على تفسير الأصوات المتنوعة للغتنا وتصنيفها وتحديدها، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار المعنى الذي تحمله هذه الأصوات، فمن أجل أن نكون مفهومين نسعى إلى أن نكون مسموعين".

لقد بين دوسوسير في محاضراته، نقطة الانطلاق لدراسة العلاقة بين الأصوات والمعنى، وقد كانت موضوعا لاستخلاص كل تطبيقات هذا النوع الجديد ولتطويره فعليا: أي الدراسة المنهجية لأصوات لغة معينة من جهة النظر إلى وظائفها اللغوية. وقد تم تأسيس هذا الفرع الجديد، في فقه اللغة Philologie الذي يدعى الأن النظام الصوتي أو العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها أو علم دراسة الفونيمات Phonèmes على يد كل من إدوارد سابير وليونارد بلومفيلد في أمريكا من جهة أو على يد لغوييي حلقة براغ Prague اللسانيين الروس والتشيك الذين يعرفون في أدبيات علم اللغة بمدرسة براغ، من جهة أخرى. وقد افترضت هذه المجموعة في المؤتمر الدولي الأول الذي عقد في Prague عام 1928، وتبنت بضعة قواعد وأطروحات منهجية تؤكد أن الوصف العلمي للنظام الصوتي لأية لغة، يجب أن يتضمن قبل كل شيء آخر الخصائص البارزة لنظامها الفونولوجي، أي الخصائص لخزين تلك اللغة الخاص، بمعنى الاختلافات بين الصور الأكوستيكية Acoustique الحركية الوثيقة الصلة بالدلالة.

رابعا: دور الصوت في اختلاف المعنى.

العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها

تصنف أصوات اللغة أو اللهجة إلى وحدات صوتية يطلق عليها في اصطلاح الوحدة على ما يسمى بـ: الفونيم Phonème كأن تقول: إن الوحدات الصوتية في اللغة العربية هي: الهمزة والباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء...إلخ و" الحد الفاصل بين كل وحدة وأخرى هو دور الصوت في اختلاف المعنى، فعلى سبيل المثال: " اللام" في اللغة العربية وحدة صوتية متميزة مهما اختلفت صورتها من تغليظ في مثل: " وَاللَّهِ " أو ترقيق في مثل: " بِاللَّهِ ". وذلك لأن المعنى لا يختلف في حالة التفخيم عنه في حالة الترقيق. و(النون) وحدة صوتية متميزة مهما اختلفت صورتها بأن كانت متحركة في مثل (نَطَقَ) أو ساكنة في مثل (يَنْطِقُ) أو مدغمة مع الغنة في مثل (من يّفعل)، وذلك لأن المعنى لا يختلف ".

ولكن (السين) إذا فخمت فأصبحت صادا، فإنها تنتقل من وحدة (السين) إلى وحدة (الصاد) نظرا لأن المعنى يختلف في هذه الحالة، فالسين في (سَارَ) غير الصاد في (صَارَ) لأن المعنى يختلف (سَارَ = مَشَى)، و(صَارَ = تَحَوَّلَ). وهكذا كل صورتين متقابلتين من ناحية التفخيم والترقيق، كل واحد منهما يعتبر وحدة صوتية مستقلة إذا ما اختلف المعنى نتيجة لاختلاف الصوتين، فالتاء والطاء كل منهما يعد وحدة مستقلة، لأن التاء في (تَابِعٌ) غير الطاء في (طَابِعٌ) فالأول اسم فاعل من (تَبِعَ) والآخر اسم فاعل من (طَبَعَ) والمعنيان مختلفان. فالحد الفاصل بين الوحدتين الصوتيين أو الفونيمين هو اختلاف المعنى في الكلمتين مع اختلاف الصوتين. ومن مجالات البحث في علم الأصوات الخاص أيضا: دراسة الصوت في موقعه في الكلمة وما يحدث له من تغير في صفته العامة نتيجة لموقعه الجديد.

خامسا: نظرية المحاكاة الصوتية ومناسبة اللفظ للمعنى / أمثلة ونماذج تطبيقية من القرآن الكريم.

لقد سبق بالذكر والمتابعة، أن الحد الفاصل بين كل وحدة صوتية وأخرى، هو دور الصوت في اختلاف المعنى، هذا على مستوى نظام الحروف أو الفونيمات، أما ما يتعلق بالمفردات أو الألفاظ، " فيحاول بعض العلماء أن يفسر لنا نشأة اللغة الإنسانية، بما يسمى المحاكاة الصوتية Onomatopie، وقد عرض لهذا الرأي من علماء المسلمين، ابن جني رحمه الله في كتابه " الخصائص " فقال : " وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها، إنما هو الأصوات المسموعات: كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيح الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس وزقيح القرد وصياح الديك ونشيش اللحم المطبوخ ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ".

ومما قد يؤيد هذه النظرية، ما قد نجده في بعض الأحيان، من اشتراك بعض الأصوات في الكلمات التي تحاكي الطبيعة في عدة لغات، فإن الكلمة التي تدل على الهمس، كما هي في العربية كما نعرف: ومن الأمثلة على ذلك النون الساكنة في التجويد القرآني، حيث تخرج من مخرجها مظهرة من غير غنة إذا وقعت قبل أحد الحروف الحلقية (الهمزة، والهاء، والعين، والحاء، والغين والحاء) مثل: (مَن آمَنَ)، (مِنْهم)، (مِن هَادٍ)، (أنَعَمْتَ)...إلخ. وتدغم النون الساكنة مع الغنة إذا وقعت في آخر كلمة ووقع في أول الكلمة الآتية (الموالية لها) أحد الأصوات الأربعة: (الياء، والواو، والنون والميم)، مثل: (مَن يَّقولُ)، (مِن وَّالٍ)، (مِن نِّعْمَةٍ)، (مِن مَّالِ اللهِ).وتدغم بغير غنة إذا وقعت في آخر الكلمة ووقع في أول الكلمة الآتية (الموالية) لام أوراء، مثل: (مِن لَّدُنَا)، (مِن رَّبهم).

وحيث تقلب هذه النون الساكنة ميما إذا وقعت قبل صوت الباء في كلمة واحدة نحو(أَنْبِئْهُمْ)، أوفي كلمتين، نحو(أَنْ بُورِكَ)، وحيث تخفى هذه النون الساكنة مع بقية الحروف، نحو: (من ثمرة)، (لمن شاء)، (من طيبات)...إلخ، فهذه أمثلة كلها على دراسة الصوت في موقعه، وما يطرأ عليه من تغير نتيجة لهذا الموقع الجديد. و" لكل لغة، ولكل لهجة نظامها المقطعي الذي يميز أصواتها، وعلى دارس اللغة وفقه اللغة أن يحدد هذه المقاطع Syllabes، وعلى سبيل المثال لا يوجد في العربية كلمات مثل:

(بِيسْتْ = عشرين)، (آرْدْ = طحين) وهما كلمتان فارسيتان لأن اللغة العربية لا يجتمع فيها ثلاثة أحرف مشكلة بالسكون. فهذا النوع من المقاطع مؤلَّف من: صوت ساكن + حركة طويلة + صوت ساكن + صوت ساكن. ومما تجدر الإشارة إليه، أن ابن جني الذي عاش في القرن الرابع الهجري هو الذي أورد الكلمتين السابقتين مع كلمة فارسية ثالثة هي (مَاسْتْ بمعنى اللبن) وقال إن اللغة العربية لا تشمل على مثل هذه الكلمات ".

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك ضمن هذا السياق Le contexte، أن علم الأصوات الخاص Phonologie، يدرس أيضا النبر l'accent :" وهو الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة، حيث يكون أوضح في السمع، وأكثر بروزا من بقية المقاطع في الكلمة le mot. ولكل لغة، ولكل لهجة نظامها الخاص في النبر".

ولعل درس العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها، يقودنا حتما إلى دراسة النبر في اللغة العربية وهو الدرس الخامس في منهاجنا البيداغوجي من محاضرات مقياس فقه اللغة ودروسها.

***أمثلة ونماذج تطبيقية من القران الكريم:**

الفاصلة القرآنية بين ملاءمة اللفظ ومراعاة المعنى:

1-على مستوى الأحرف (الحروف).

2-على مستوى المفردات (الألفاظ).

إن الفاصلة في القرآن هي كلمة آخر الآية، في كتاب الله تعالى، قال ابن منظور (ت711 هـ) في هذا السياق:" وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل، بمنزلة قوافي الشعر و...واحدتها فاصلة".

وقال بدر الدين الزركشي (ت 794هـ):" الفاصلة هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع".

من هنا ندرك أن القدامى من اللغويين والنقاد وعلماء الإعجاز، قد شبهوا الفاصلة القرآنية بقافية الشعر أو قرينة السجع، محاولة توجيه النظر إلى الجرس الصوتي، والملاءمة اللفظية، أكثر من لفت الانتباه إلى المواءمة الدلالية والارتباط العضوي بين مضمون الآيات وخواتمها، وهذا ليس صحيحا على الإطلاق حتى إن بعض القدماء

لاحظ في الفواصل القرآنية تبعيتها للمعاني بخلاف الأسجاع التي تتبع فيها المعاني الألفاظ.".

ولإبراز الجانب الصوتي (الموسيقي) في الفواصل، ومراعاة متطلبات الإيقاع ومقتضيات التلاؤم النغمي والدلالي، راعت الآيات القرآنية ما يلي:

1-على مستوى الحروف:

1-1-بناء كثير من الفواصل على الوقف pause:

(المشكلة بالسكون) حتى لا يختل الإيقاع. ولهذا شاع الجمع بين الفواصل المختلفة الإعراب نظرا لاتفاق شكلها عند الوقف، ومن ذلك قوله تعالى: "إنا خلقناهم من طين لازب" (الصفات11). مع تقدم قوله تعالى: "عذاب واصب" (الصافات9) و" شهاب ثاقب" (الصافات10). وقد نبه إلى ذلك محمد الحسناوي حين قال: "بل إن جزم الفعل انحر في سورة الكوثر، ليؤكد لنا أن الوقف بالسكون على رؤوس آيات هذه السورة لأن يحقق الانسجام الصوتي (الموسيقي) قال تعالى:" إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر"، وقد أدت مراعاة القرآن للفواصل إلى جملة تغييرات خرجت لبعض التراكيب عن النمط العادي، وقد شمل ذلك:

1-2-التقديم والتأخير:

كما في قوله تعالى: "فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب العالمين" (طه69). وذلك لعلة مراعاة الألف المقصورة أو الألف اللينة التي سادت التلوين الصوتي للسورة. وقارن هذا بقوله في سورة الشعراء الآيات 45-48 وبين: "قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون".

فقدم حتما بهارون مراعاة للفاصلة، حيث تسيطر النون المسبوقة بمد على سورة الشعراء. وقبل هاتين الآيتين: الغالبون، يأفكون، ساجدين".

ومنه كذلك قوله تعالى: "إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى" (سورة الليل 12،13) حيث عدل البيان القرآني عما هو مألوف ومتبادر من تقديم الأولى عن الآخرة، مراعاة للفواصل .

1-3-زيادة حرف لأجل الفاصلة (مراعاة الصوت للمعنى):

جاء في قوله تعالى: "وتظنون بالله الظنونا" (الأحزاب10). لأن معظم الآيات من هذه السورة المدنية ينتهي بألف منقلبة عن تنوين وقفا.

فزيد عن النون ألف لمناسبة نهايات الفواصل في الآيات، وقبل هذه الآية: مسطورا، غليظا، أليما، بصيرا، وبعدها شديدا، غرورا، فرارا، ومثلها في قوله تعالى: "إنا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلا" (الأحزاب67. برواية ورش لقراءة الإمام نافع).

-وكذلك إلحاق هاء السكت في قوله تعالى: "ماهيه" من سورة القارعة، الآية 8،9. (وما أدراك ماهيه. نار حاميه) لتحقق اتفاق الفواصل مع ما قبلها وما بعدها (فأمه هاويه. وما أدراك ماهيه. نار حامية).

1-4-حذف ياء العلة:

مثل قوله تعالى: "والليل إذا يسر" (سورة الفجر عن ورش 4)، بدلا من (يسري) لوجودها مع الفجر، عشر، الوتر،... إلى بقية الآيات من نفس السورة، وبمختلف صور الحذف ونماذجه للحرف، ومراعاة للفاصلة ومقتضيات البناء الدلالي العام للسورة".

2- على مستوى المفردات (الألفاظ).

يرى بعض علماء الإعجاز واللغة بناء على هذه النظرية (نظرية المحاكاة الصوتية ومناسبة اللفظ للمعنى).

إن مناسبة اللفظ للمعنى مناسبة حتمية، بمعنى أن اللفظ يدل على معناه دلالة وجوب، لانفكاك فيها. ومن نادى بهذا الرأي عباد بن سلمان العميري . من المعتزلة "فقد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية، حاملة للواضع على أن يضع هذه اللفظة أو تلك، بإزاء هذا المعنى أو ذاك ويرون عن بعض من تابعه على رأيه هذا، أنه كان يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها، فسئل عن معنى كلمة: (إذغاغ) وهي بالفارسية: الحجر، كما يقولون. فقال: أجد فيه يبسا شديدا، وأراه الحجر".

ولعله من المفيد التأكيد هاهنا، أن من أنصار المناسبة بين اللفظ والمعنى من علماء العربية العلامة اللغوي أبو الفتح عثمان ابن جني، الذي عقد في كتابه "الخصائص" بابا طويلا، جعل عنوانه: "باب في إمساء الألفاظ أشباه المعاني"، وذكر فيه ألفاظا كثيرة من اللغة العربية، تؤكد كلها نظريته في مناسبة صوت الكلمة ومعناها".

ويمكن اختزال هذا الباب (في إمساء الألفاظ أشباه المعاني) في الآتي:

أ-عند النحاة واللغويين:

يروي سيبويه عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، أن العرب قالوا في الدلالة على صوت الجندب": (صر)، لأن في صوته امتدادا واستطالة. أما البازي" فدلت العرب عن صوته بالفعل (صرصر)، لأن فيه تقطيعا وعدم استمرار.

كما يذكر ابن جني عن سيبويه تفسيره لوجود كثير الحركات في المصادر العربية التي جاءت على وزن: (فعلان) لمناسبة دلالتها على الاضطراب والحركة، مثل:(الغليان) و(الهيجان) و(الطيران) و(الفوران)، وما أشبه ذلك. يقول رمضان عبد التواب في هذا السياق :"وهذا الذي ذكره ابن جني، يصح في بعض نصوص اللغة العربية، دون غيرها، فلو أننا نظرنا مثلا إلى الآية القرآنية التي يقول فيها الباري سبحانه وتعالى :"وغلقت الأبواب وقالت هيت لك" (سورة يوسف23) لأحسسنا بصوت المزاليج وهي تحكم رتاج الأبواب، وينعدم هذا الإحساس مع الفعل:(أغلق) الذي يدل على مجرد الإغلاق".

ب-عند نقاد الأدب العربي القديم:

لقد نزع كثير من نقاد الأدب منزع اللغويين، في محاولة عقد الصلة بين اللفظ ومعناه، فهذا هو ضياء الدين بن الأثير (ت637 هـ) يكمل مسيرة ابن جني وأسلافه من علماء اللغة العربية، حول مناسبة الألفاظ للمعاني، فيقول:" اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا". ومن هنا نشأت الفكرة أو النظرية التي تقول:" إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى".

ولذلك يجب أن لا ننساق وراء الفكرة وتفهمها على كل مثال وجدت فيه هذه الظاهرة فقد تكون هناك – مثلا – كلمتان تدلان على معنى معين، غير أن إحداهما مقتطعة في الأصل من الأخرى، وليست الثانية مزيدة منها، كما توهم علماء البصرة ذلك في (السين) و(سوف) فقالوا: إن(سوف) تدل على الاستقبال البعيد، و(السين) تدل على الاستقبال القريب. "وليس في نصوص اللغة العربية ما يشهد لتكلفهم هذا، فقوله تعالى:" فسيكفيكهم الله" (سورة البقرة136). ليس معناه تحقق هذه الكفاية في الغد، كما أن قوله تعالى: "ولسوف يعطيك ربك فترضى" (سورة الضحى5) ليس معناه تأخرا لإعطاء عاما أو

عامين، بل إن الحقيقة أن (سوف) أقدم من (السين)، وأن (السين) جزء مقتطع منها. فمن الحقائق المقررة عند المحدثين من علماء اللغة أن كثرة الاستعمال تبلي الألفاظ".

سادسا: دلالة الجرس أو الصوت

عرض وتحليل ومقاربات أنطولوجية

لقد لخص الخليل بن أحمد الفراهيدي، ومن سار على منهجه إلى نوع من الفهم بغرض وجود صلات دائمة بين اللفظ ودلالته، قال الخليل:" كأنهم توهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر".

كما رأى سيبويه:" أن النزوان والنقزان، والقفزان أشياء تدل على زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع، ورأى أن الغليان والغثيان واللمعان والخطران مصادر تفيد الحركة والاضطراب أينما جاءت".

نستشف من هذه المصادر أهمية هذه العلاقة التي تربط اللفظ بمعناه، وهي التي مازالت حتى اليوم حجر الزاوية في كل دراسات فقه اللغة وعلم الدلالة والصوتيات، ويعبر ستيفن أولمان عن أهمية الدراسة بقوله: "إن نواة دراسة علم الدلالة، هي العلاقة ذات القطبين بين وجهيها المتداخلين العلامة signe، وهذا يقابل اللفظ عند علماء العرب، والشيء المدلول عليه signifiant، أي: بين ما يدل على معنى، والشيء المعني"، وفي هذا السياق يقول أحمد مختار عمر: "إن هذا النوع من الصوت ذو صلة بعلم الدلالة والرابط بينهما هو المعنى، فإذا كان علم الدلالة هو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى، فإن الصوت هو حركة المعنى وليس بينهما انفصال ولإدراك أحدهما ينبغي اكتشاف الآخر معه ".

ومن هذه المقاربات المفهومية، نرى جهد ابن جني لربط الصيغ بالدلالات، وتلك هي نظرته الأولى التي مكنته منها أذنه المحللة للأصوات ولطبيعة العلاقة بين التوكيد الصوتي والدلالة. لقد اعتقد ابن جني "أن العرب كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت Azimut الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها".

وبوحي هذه النظرية (جريان أصوات الحروف على سمت الأحداث) يسوق ابن جني كثيرا من الأمثلة، يمكن حصرها في الآتي:

1-خضم وقضم: فالخضم لأكل الرطب، والقضم للصلب اليابس. وقد علل ابن جني رأيه هذا، بشواهد فقال القدماء يقولون: "قد يدرك الخضم بالقضم". أي: قد يدرك الرخاء بالشدة واللين بالشظف، وبنفس الروح المعللة يقول ابن جني :"إن الخاء لرخاوتها قد اختاروها للرطب، وإن القاف لصلابتها اختيرت لليابس، وذلك حذو لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث".

2-ومن قبل ابن جني ذكر الكسائي(ت189هـ) أن القضم للفرس والخضم للإنسان على حين قال غيره: إن القضم بأطراف اللسان، والخضم بأقصى الأضراس".

ومنها قولهم: النضح للماء، والنضخ لما هو أثقل من الماء. وعلة ذلك أن الحاء –لرقتها–جعلت للماء الضعيف وأن الخاء –لغلظها–جعلت لما هو أقوى من الماء.

3-ومنها الوسيلة والوصيلة: والمعنى هنا لا يختلف في أصله، ولكنه مختلف في نوعه أو درجة توكيده، ويعلق ابن جني على هذا الخلاف بقوله المحكم: "الصاد–كما ترى أقوى صوتا من السين، لما فيها من الاستعلاء. والوصيلة أُقوى معنى من الوسيلة. وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة، بل الصلة أصلها اتصال الشيء بالشيء وممارسته له، وكونه في أكثر الأحوال بعضا له، كاتصال الأعضاء بالإنسان وهي أبعاضه، ونحو ذلك. والتوسل معنى يضعف ويصغر، أي يكون المتوسل جزءا من المتوسل له. وهذا واضح، فجعلوا الصاد لقوتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها للمعنى الأضعف".

4-لم يقف ابن جني في نظريته على شواهد منفردة، وقد ساق عديد الأمثلة التي تؤكد تلازم العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها." وفرق الدلالة مع فرق الصوت، وخاصة فيما بين السين والصاد فقد قالوا: صعد وسعد وخصوا صعد بما فيه أثر مشاهد يرى.

وقالوا هو سعيد الجد بمعنى هو عالي الجد. فكأنهم جعلوا الصاد لقوتها على ما يشاهد من الأفعال المتجشمة. وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين. ويضيف ابن جني لذلك: "إن الدلالة اللفظية أقوى من الدلالة المعنوية". والذي يعنيه بالدلالة اللفظية هو الدلالة التي يرتبط فيها اللفظ بمعنى محسوس، وليس بمعنى مجرد. وهذا يساير الاعتقاد الشائع عند نفر من اللغويين في أن أصل المعاني محسوسات، ثم توالدت منها المعاني المجردة أو المعنوية، بل وربما تكون كيفية الاستعمال هي التي

نفثت الروح بين المجردات وأصولها المحسوسات. ومازال اللغويون يذكرون مثل أبي عمرو بن العلاء حين قال:" إن أصل الخيلاء من الخيل، وأن الصلة بين الخيلاء ومشية الخيل دافعة لذلك الاعتقاد."

خاتمة:

لقد عالجت هذه المقالة العلمية قضية الصوت الذي يعد من أكثر الإشكاليات حضورا في الدرس اللساني الحديث والتراثي، لكونه مرتبطا ببنية النص الأدبي في مجالاته النحوية والصرفية والدلالية.

إن من أبرز القضايا اللغوية التي يعالجها الصوت ما يتعلق بالبحث عن المعنى، فإذا كان علم الدلالة هو العلم الذي يدرس المعنى، فإن العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها تؤدي حتما إلى المعنى الذي يحمله الرمز اللغوي بكل أبعاده: المعجمية والإيحائية.

ومن أبرز النتائج المتوصل إليها:

1-محاولة الربط بين صوت الكلمة ومعناها في الدرس اللساني الحديث وانعكاساته في التراث اللغوي العربي.

2-محاولة الربط بين الصوت والمعنى في الخطاب اللغوي ونتائج علم اللغة الحديث.

المصادر والمراجع:

1- إخوان الصفا أو خلان الوفا هم جماعة من فلاسفة المسلمين من أهل القرن الثالث الهجري والعاشر ميلادي بالبصرة اتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في ذلك العهد فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها "تحف إخوان الصفا".

2- محمود عكاشة: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دار النشر للجامعات، ط1، مصر 2005، ص 17.

3- أحمد محمد قدور: اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، ط 1، دمشق، 2001 ص41.

4- محمود عكاشة: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، ص 17.

5- محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1983، ص 584.
6- مهدي المخزومي: في النحو العربي- نقد وتوجيه – دار الرائد العربي، ط2، 1986، بيروت لبنان ص 27.
7- محمود السعران: علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، 1992، ص 124.
8- المرجع نفسه، ص 126.
9- رومان ياكبسون: ست (6) محاضرات في الصوت والمعنى، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، بيروت، ص 53.
10- المرجع نفسه، ص 55.
11- الأكوستيكية: سمعي أي: ما يتعلق بالصوت من حيث انتقال موجاته في الهواء إلى أذن السامع، وأثره السمعي.
12- عبد العزيز مطر: علم اللغة وفقه اللغة، دار قطري بن الفجاءة، قطر، 1985 ، ص 40.
13- ابن جني: الخصائص ص 46/1.
14- عبد العزيز مطر: علم اللغة وفقه اللغة، ص 42.
15- المرجع نفسه، ص 42.
16- ابن منظور: لسان العرب، مادة (فصل).
17- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القران، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث العربي بالقاهرة1958، ص53/1.
18- أحمد مختار عمر: لغة القران مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ط1، 1993، ص132.
19- محمد الحسناوي: الفاصلة في القران، بيروت ط2، 1986، ص136/135
20- ينظر: البرهان في علوم القران بدر الدين الزركشي26/1 والإتقان في علوم القران لجلال الدين السيوطي 99/2، والفاصلة في القران لمحمد الحسناوي ومخطوط أطروحة دكتوراه موسومة " البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني عبد الرحيم عزاب جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 2010 ".
21- جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللغة، ص47/1..

22- رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1، 1982 ص19.

23- معنى الجندب: حشرة من رتيبات حاملات الأزاميل تستطيع القفز لمسافة تبلغ أضعاف طول جسمها لذلك تدعى بالقفازة ويشبه الجرادة.

24- البازي: هو طائر من رتبة الجوارح ومن فصيلة البازية.

25- رمضان عبد التواب: بحوث ومقالات في اللغة، ص20.

26- ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1990، ص250/2.

27- ينظر: رمضان عبد التواب: التطور اللغوي وعلله وقوانينه، القاهرة، 1981، ص98-100.

28- عثمان بن جني: الخصائص، دار الكتب العلمية، ج2، ص152.

29- المصدر نفسه، ص155.

30- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1988 ص60.

31- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، مكتبة العروبة للنشر والتوزيع الكويت، ط1، 1982 ص14.

32- ابن جني: الخصائص، ص157.

33- المصدر نفسه، ص157.

34- جلال الدين السيوطي (ت 911 ه): المزهر في علوم اللغة وأنواعها دار إحياء الكتب ص51/1.

35- ابن جني: الخصائص 160/3.

36- جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، ص353.